إشكالية (الشخصية السردية) في كتاب (في نظرية الرواية) لـــ : عبد الملك مرتاض
– قراءة مصطلحية مفهومية –

أ.بوجملين مصطفى
جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

résume

L'autorité du terme narratif reste prisonnier de la théorie cognitive qui a érigé une clôture conceptuellement à lui et elle chercha à lui cristalliser et donner des titres relevant.

Sur cette base, nous cherchons dans cet article a fournir une lecture critique de certains importants termes de narration dans le livre (dans la théorie du roman) par (Abdou lElMalik Mourtad), et qui est représentatif par (la personnalité narratif); car il occupe une place importante en tant que composants principaux du texte narratif, ainsi que: le lieu, le temps, le narrateur, la langue narratif … et bien d'autres.

Par conséquent, notre objectif principal est d'étudier et d'explorer l'aperçu du critique (Abdoul ElMalik Mourtad) vis-à-vis le problème de (la personnalité) dans ces deux coté (terminologique / conceptuel), afin d'atteindre la nature de son lecture , et aussi pour rechercher ce qui ressemble à une diligence critique – si trouver - pour donner de visions conceptuelles spécifiques a elle.

لقد أضحت معرفة سيرورة النقد الأدبي العربي الحداثي رهينة الكشف عن مرجعيات التأصيل المعرفي التي استوت على قاعدتها النظرية النقدية الحداثية ، والتي أفرزت سيلا مصطلحيا رافدا من حقول معرفية متباينة.

ولعلَه من الضرورة بما كان أن يضحى المشتغلون على مثل هذه النظريات متسلحين بمنظومة معرفية تطفح بالعلمية الرصينة، تخول لهم بإطلاق المسميات على المفاهيم الوافدة.

وعلى هذا فإن النظر في قراءات النقاد الحفرية لتلكم المنابع الفكرية والمعرفية وغيرها التي كانت حاضـــنة لهذه المصطلحات أضحت ضرورة مسيسة للغاية، ما دامت الحدود المفهومية منبثقة من رحم المرجعية التأثيلية.

ولعله من نافلة القول أن نؤكد على قيمة النظريات النقدية الغربية الوافدة على الساحة النقدية العربية ، والتي كانت أبرزها (نظريات السرد) ؛ التياجتاحت المنجز النقدي العربي بقاموس مصطلحي اتسم بالغزارة،فأضحت لغته مطلبا يتشدق له النقاد العرب ، فألَفو من خلاله مدونات نقدية تنقل هذه المصطلحات ومفاهيمهـــا المتعـــددة حســـب مشاربها ومنابعها التأصيلية في مسعى نحسبه حواريا مع المنجز النقدي الغربي .

ولا محالة أن تحمل مصطلحات (نظريات السرد)هذه الأهمية باعتبارها لبنات العمل السردي ، الذي يشـــكَل من خلالها وجوده النصي، وهي بذلك ليست «عرضا زائدا، فالنص يبني معانيه استنادا إليها،إنها الشكل الذي مـــن خلاله يتخذ المعنى حجما»(1).

إن قصدية الكشف عن الحدود المفهومية لتلكم المشكَلات (التقنيات) السردية مرده إلى الأهمية التي حظي بها المكوَن السردي داخل نظريات السرد ، التي عكفت على النبش في جوهره وإجلاء ماهيته باعتباره عمـــود الـــنص

السردي ، الذي يمثل ذلك «العمل الإبداعي الذي ينطوي على مكونات وسمات عامة متفق عليها في الميثاق السردي باصطلاح فليب هامون ». (2)

على أننا لا نجد صورة نهائية متكاملة للمشكَلات السردية التي أشار إليها (فيليب هامون) وجعلها تأخذ طابعا متفقا عليه ، والذي اصطلح عليه الناقد بــــــ(الميثاق السردي) ؛ لأن صورة النقد السردي لا زالت تعج بتقلبـــات رهيبة ولم تجد استقرارا على أرضية متماسكة من المفاهيم الواضحة والمصطلحات المتفق عليها من لدن العـــارفين بشؤون نظريات السرد الحديثة .

ومن هنا حرص منظرو السرديات – أو السردانية بالاصطلاح المرتاضـــي – علـــى ســبر أغـــوار هـــذه المصطلحات السردية ورسم حدودها وتحديد وظائفها ، إذ نجد من جملة قضاياها « موقع الراوي السارد وعلاقتـــه بالمؤلف والشخصيات (...) وضمائر السرد، وقضايا اللغة المستعملة في السرد ». (3)

وعليه فإن مهمتنا في هذه الورقة البحثية تكمن في استقصاء أحد أبرز (المصطلحات السردية)والمتمثلة فـــي (الشخصية السردية) ، عبر التطرق إلى إشكالاتها المصطلحية والمفهوميةفي الأقوال النقدية المختلفة ، ثم النظر في القراءة النقدية لها عند الناقد (عبد الملك مرتاض) في مدونته الموسومة بـــــــــ(في نظرية الرواية)قصد الكشـــف عن إشكالاتها المصطلحية عنده ، والنظر في تجاذبات المفاهيم التي تتجمَع في مداراتها ، وبيان ذلك الآتي :

لقد ظلَ مشكَل (الشخصية) أبرز المباحث السردية المستعصية داخل حيز الإنشائية، فالتبست بذلك مصطلحاته الدالة عليه، واكتنف الغموض الرؤى النقدية التي تكابد جاهدة لرسم حدوده وسبر أغواره المفهومية.

فأما عن الحدود المفهومية المتعلقة بمصطلح (الشخصية) ، فإنها كثيرا ما تدمج مع مصـــطلح (الشـــخص)؛ لأنهما يخلقان وشائج قربى في تضايفهما مع بعض ، أضف إلى وجودها في حقول معرفية عديدة .

وبما أن التحري عن مفاهيمها اللغوية قد أضحى مطلبا هاما فإننا ركنا إلى معاجم لغوية؛من مثـــل (المعجـــم الوسيط) الذي يعرَف (الشخصية) على أنها «صفات تميز الشخص من غيره. ويقال فلان ذو شخصـــية قويـــة: ذو صفات متميزة، وإرادة وكيان مستقل». (4)

أما مصطلح (الشخص) فإنه ورد في (لسان العرب) وفق التحديد الآتي: «الشخص: كل جســم لـــه ارتفـــاع وظهور، والمراد به إثبات الذات ، فاستعير لها لفظ الشخص »(5).

في حين أن دلالة (الشخص) تتحوَل في معجم (بطرس البستاني) لتدلَ على « الجسم الـــذي لـــه مشـــخص وحجمية، وقد يراد به الذات المخصوصة ، والهيئة المعينة في نفسها تعيينا يمتاز عن غيره ». (6)

ونخلص من هذه التعاريف التي حدَدتمفهوميا مصطلحي (الشخصية / الشخص) إلا ما يشبه التوافق بينهما؛ إذ إن الهيئة التي تعين الشخص وتجعله مميزا عن غيره– والتي أشار إليها البستاني –، لا تكاد ترقـــى عـــن مفهـــوم الشخصية الذي ورد في (المعجم الوسيط)باعتبار أنها حاملة لصفات وميزات تفترق من شخص لآخر، وبذلك فكـــلا المصطلحين اصطبغا مفهوميا بسمة الميزة المغايرة أو الشكل المختلف – إن صح الاصطلاح – .

ولأهمية مشكل (الشخصية) داخل العمل السردي ، فقد دعت الناقد (إيف روتير) إلى أن يعتبر «كل قصة هي قصة شخصيات » (7).

ولعل إقرار (روتير) بالوجود القسري للشخصية داخل القصة ، في إشارة ضمنية مؤداهاأن لا قصة بدون شخصيات، فإن (ج. م.آدم) (Jean Michel Adam) لا يبتعد كثيرا عن هذه الرؤية ، لكنه يركز على صدارتها باعتبارها المكون الرئيس الذي تتعالق من خلاله المشكلات السردية الأخرى ، وبالتالي يخلق التضام والانسجام بينها، وهذا ما يفهم – في نظرنا– من قوله: « إن الشخصيات تمثل المبدأ الأول في ائتلاف عناصر القصة وانسجامها » [8].

بينما نجد الناقد الفرنسي (رولان بارت) يبطل هذا الزعم الذي يمنح الشخصية الصدارة ويرهن وجود السرد بوجودها القسري، منطلقا في رأيه هذا من الشعرية الأرسطية القديمة، إذ يقول : « إن مفهوم الشخصيات في الشعرية الأرسطية لأمر ثانوي، وهو يخضع خضوعا كليا لمفهوم الفعل». [9]

ولا نحسب – في رأينا– أن الناقد كان موجَها عدسته النقدية إلى الشخصية بذاتها انطلاقا من الرؤية الأرسطية؛ لأن هذا الأخير قد أشار إلى هذه المسألة انطلاقا من فكرة (المحاكاة) التي تتعلق عنده بمحاكاة أفعال الأشخاص لا محاكاة الأشخاص أنفسهم ، ولعل هذا الغموض المصطلحي يعود إلى النظرة الأحادية التي تراهن على الشخصية انطلاقا من تمثلها الفيزيقي وإلصاق الطبائع بعيدا عن كينونتها النصية، أو الذين يجعلون منها دالاعلاميا يتخذ له مكانا دخل البناء النصي السردي .

أما في ميدان (علم النفس) فإن مصطلح (الشخصية) يعرف بأنه « ذلك المفهوم أو ذلك الاصطلاح الذي يصف الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية أو الإدراكية معقدة التنظيم تميزه على غيره من الناس ». [10]

وفي سياق الحديث عن (الجانب السيكولوجي) للشخصية ، فإننا نظفر برؤية مهمة لـ(فيليب هامون) حيث يقول : « لم تؤسس النمذجات الأدبية الأكثر تطورا، (أرسطو، لوكاتش، فراي) إلا على نظرية شبه واضحة للشخصية (البطل الإشكالي أو غير الإشكالي) (...)، والذي ما يزال سائدا لحد الآن هو النموذج السيكولوجي ». [11]

إلا أن تثبيت النموذج السيكولوجي وجعله لصيقا بالشخصية قد لا يسعف في إضاءة حدودها وماهيتها في نظر الناقد الفرنسي (جيرار جنيت) ، الذي أزاح المبدأ السيكولوجي عنها ، في مقاله الذي حمل عنوان " المحتمل والتعليل " الذي نشر في العدد الحادي عشر من مجلة (تواصلات) 1998، حيث ربط الناقد الجانب السيكولوجي بالقارئ وليس بالشخصية، إذ إن «السيكولوجية لا توجد في الشخصيات، وإنما في إدراك القارئ لنوع من (الأثر / النص) (...)، ويبدو هذا الأثر من خلال إقامة وشرح رابط منهجي بين السبب والنتيجة ما بين الأفعال والشخصيات». [12]

ومن زاوية أخرى ارتأى بعض النقاد استلهام مقولات (الشخصية) ليمثَلوا لها بمصطلحات أخرى من مثل: البطل، الفاعل، الشخص، علامة ... وغيرها، أو بنفيها والخلوص إلى (اللاشخصية)[*] – وفق تصور (فيليب هامون) – .

فأمَا (البطل) (Hero/Héros)فقد كان يمثّل قديما «شخصا مقدسا، بل كانوا يظنونهأحيانا من سلالة الآلهة، وكأنه هبة تهبها لهم، حتى لا يقعوا فريسة لمن سواهم، وحتىلا يسقطوا في مهاوي لا قرار لها من الاضمحلال والفناء». [13]

أما (لطيف زيتوني) فقد عرفه وفق التحديد الآتي : « شخصية أسطورية قادرة على أن تغير نفسها وتغير العالم حولها، فهو يتحدر من الميثة ويعيد خلقها بأشكال تناسب العصر الذي هو فيه ». [14]

ويبدو أنا لناقد يعمد إلى أقلمة مصطلح (البطل) في دائرة الميثولوجيا القديمة التي تتصارع بها القوى الخارقة في فضاء خيال مجنح . وحرصا منه على أن لا يدع مساحة للقارئ للتساؤل عن مصير الشخصية وفق تحديده المفهومي الذي خصَ به (البطل)، فإنه أشار إلى مبدأ الافتراق والتميَز بينهما قائلا:«الشخصية الرئيسة تكتسب صفتها من دورها داخل الرواية، أمَا البطل فتكتسب صفته لا من دوره فقط ، بل من خصاله أيضا ».[15]

وبما أن هذا التعريف قد أحالنا إلى مصطلح (البطل) فأشار إلى مبدأ مهم يقوي حضوره داخل الرواية والمتمثل في الخصال والميزات التي تكون لصيقة به، فإن الناقد (عبد الملك مرتاض) يذهب إلى غير ذلك ؛ إذ ينفي وجود شخصية (البطل) داخل المنجز الروائي؛ لأنه موكل بجنس الملحمة ، وهذا ما نلمحه جليا في قوله:«الشخصيات في الملحمة أبطال ، وفي الرواية كائنات عادية)). [16]

أمَا (السيد إمام) فإنه يجعل من الفاعل (Agent) رديفا للشخصية (Character)فهو عنده« كائن بشري مؤنسن ، يقوم بأحد الأفعال أو الأعمال». ()

وبعد هذه القراءة المسحية لمشكل (الشخصية) في المعاجم المصطلحية والمدونات النقدية السردية، فإننا سنلج إلى المفاهيم التي خصها (عبد الملك مرتاض) لهذا المبحث السردي المهم .

لقد أفرد الناقد (عبد الملك مرتاض)لمكوَن (الشخصية) موقعا مركزيا ؛ إذ أضحت عنده بؤرة لها الهيمنة الخاصة ، ومن خلالها تنشطر سائر المشكلات السردية الأخرى ، التيلا تنطلق على أرضية المنجز السردي إلا بوجودها ، « فلا الزمن زمن إلا بها ومعها ، ولا الحيز حيز إلا بها، حيث هي التي تحويه وتقدره لغاياتها، على حين أن اللغة تكون خدما لها وطوع أمرها ». [17]

ولعلنا نجد في هذا الموقف الذي أفرده الناقد للشخصية حكما قطعيا صريحا ، ينتصر فيه الناقد لأحد أهم المصطلحات السردية التي تتعالق بها سائر المكونات السردية الأخرى فتقبع داخل مظلتها .

ولعل ما يدعَم هذه الرؤية هو عثورنا على تبرير مواز لمقولة (عبد الملك مرتاض) الآنفة، إذ جلَى هذا المشكل السردي العجيب بشيء من الإسهاب والوصف الانسيابي البديع، وكأن بالناقد يطمح إلى تثبيت قاعدة سردية مؤداها أن أفول الشخصية وغيابها يستلزم حتما الإقرار باللا رواية . إذ نلمحه قائلا :« لا أحد من المكونات السردية الأخرى يقتدر على ما تقتدر عليه الشخصية ، فاللغة وحدها تستحيل إلى سمات خرساء فجة لا تكاد تحمل شيئا من الحياة والجمال. والحدث وحده وفي غياب وجود الشخصية يستحيل أن يوجد في معزل عنها، لأن هذه الشخصيةهي التي توجد، وتنهض به نهوضا عجيبا. والحيز يخمد ويخرس إذا لم تسكنه هذه الكائنات الورقية العجيبة : الشخصيات» . [18]

وعليه ، فإننا سنعرج إلى رؤية (عبد الملك مرتاض)لهذا المبحث السردي، فنسوق المصطلح الأنسب الـذي ارتضاه لها وأقر بتبنيه بديلا عن مصطلحات أخرى، ونكشف عن مفاهيمها عنده والتي تنزع إلى مراجع تأصـيلية لاقت القبول عنده .

لقد استهل الناقد حديثه عن هذا المبحث السردي المهم ببسطه مهادا تفصيليا يوضح من خلاله مسألة تعـالق الشخصية بالأيديولوجيات والحضارات والتاريخ ، مشددا في ذلك على مبدأ وجودها الفعلي في الرواية التقليديـة ، التي تمثلها أعلام روائية من مثل (كافكا) ، (بالزاك) ، (إميل زولا) ، (نجيب محفوظ) ... وغيرهم .

ويصرَ الناقد على مبدأ تعامل الرواية التقليدية مع (الشخصية) على أساس أنها «كـائن حـي لـه وجـوده الفيزيقي، فتوصف ملامحها، وقامتها، وصوتها، وملابسها ».[19]

ويمضي (عبد الملك مرتاض) في معرض الدفاع عن مصـطلح (الشخصـية) بـدل الإفصـاح بـ(دال) (الشخص)، انطلاقا من ركونه إلى المعنى الشائع لدى الطبقة العامية ، إذ يقول في هذا الشأن:« وأيا كان الشأن، فإن المصطلح الذي نستعمله نحن مقابلا للمصطلح الغربي هو "الشخصية"، وذلك على أساس أن المنطق الدلالي للغـة « Personnage »العربية الشائعة بين الناس يقتضي أن يكون "الشخص" هو الفرد المسجل في البلدية(...) والـذي يولد فعلا ويموت حقا، بينما إطلاق الشخصية لا يخلو من عمومية المعنى في اللغة العربية ، زئبقي الدلالة». [20]

ثم ما يفتأ الناقد أن يوضح ظلال كل من المصطلحين (الشخص/ الشخصية)، في رغبة منه إلى وضع حدود مفهومية تختصَان بها، وهذا ما أوضحه (عبد الملك مرتاض)في كتابه النقدي الموسوم بـ: (تحليل الخطاب السردي) ؛ إذ يقول:«ويختلف الشخص عن الشخصية بأنه الإنسان، لا صـورته التـي تمثلهـا الشخصـية فـي الأعمـال السردية».[21]

ولا مناص – ههنا – أن طرق الناقد (عبد الملك مرتاض) لهذه المسألة التمييزية بين مصطلحي (الشخصية / الشخص) أضحى من الأهمية بما كان ؛ حيث إنَ « التصوَر التقليدي للشخصية كان يعتمد أساسا على الصفات مما جعله يخلط كثيرا بين الشخصية الحكائية (personnage) (...) وperson الشخص» . [22]

وعلى الرغم من تبني (عبد الملك مرتاض) لمقولة (ميشال زيرافا) التي تقضي بكون (الشخصـية) مجـرد علامة لغوية (دال / ومدلول) لا تنسحب إلى الوجود الواقعي ؛ إلا أن (ميشال زيرافـا) قـد أشـار إلـى تمثيلهـا (الشخص) كذلك ، وهذا الأمر نفاه (عبد الملك مرتاض) جملة وتفصيلا ، فقد عمد إلى إزاحة مقولـة (الشـخص) وأبقى على مصطلح (الشخصية) وقد نقل الناقد (لحميد لحمداني) هذه الرؤية التي تنص علـى أن «بطـل الروايـة هوشخصفي الحدود نفسها التي يكون فيها علامة على رؤية ما للشخص (Personne)» .[23]

وفي هذا السياق يفصح (عبد الملك مرتاض) قائلا : « أفبعد كل هذا يمجد كافكا على أنـه أول مـن مـنح الشخصية الروائية حرفا أو رقما ، لا اسما كاملا ، والحال أن آلاف الناس كانوا ينادون بالأرقام » . [24]

ثم لا يبرح الناقد أن يرسو على قاعدة التراثية ليدلل على اشتقاقات الاسم داخل الصرح اللغـوي العربـي ؛ والذي لا يرى في الاسم سوى علامة(Sign)؛ إذ يقـول (عبد الملك مرتاض): « أرأيت أن اشتقاق الاسـم فـي اللغة العربية لم يأت في الغالب إلا من الوسم أي العلم .فأي حرج أن يطلق مطلق من كتـاب الروايـة ومـدبجي

الحكايات علـــــى شخصية من شخصياته علامة من هذه العلامات ، كما نطلق حروفا معينة محرفة عــن الاســم الأصلي الطويل».[25]

وإن كانت السجلات النقدية حامية الوطيس في اعتبار (الشخصية) كائنا حيا أو مجرد كائن ورقــي لا يحيــد عن حيز المنجز النصي، فإنَ نظرتنا لهذه المسألة الشائكة ستكون موافقة لما جنح إليه الناقد (بوعلي كحال) ، الــذي يقول عن هذا المشكل السردي:« ومن المنظور السردي لا تفيد معرفة هوية الشخصية ، سواء أكانت من لحــم ودم أو من ورق ، في تحليل وتفكيك البنية السردية وآليات اشتغالها » .[26]

أما فيما يختص بأنواع (الشخصية) والتي عكف الناقد (عبد الملك مرتاض) على تبيانها فقد انحصرت عنــده في نوعين أساسين ، وهما : (الشخصية المدوَرة) و(الشخصية المسطحة) ، علما أنه لكلا المصطلحين مصــطلحات موازية لهما.

***- الشخصية المدورة :**

إنه لمن المعلوم أن الناقد (فوستر) هو من ابتدع هذا اللون من الشخصية ، لكن هذا لا يمنع مــن أن توجــد مصطلحات موازية لها ، فتشتط عن هذا المسمى إلى مسميات أخرى ؛ مــن مثــل : « (الشخصــية الديناميــة) أو (المحورية) أو (المعقَدة) أو (المتحرَكة) أو (المكثَفة) أو (المتعددة الأبعاد) أو (المتغيَرة) » . [27]

وفيما يختص بنقدتنا العرب الذين تعرضوا إلى هذا اللون من الشخصية فإننا نلفي – مثلا – الناقد (إبــراهيم فتحي) الذي اصطلح على مصطلح (Round character) بـــــ : (الشخصــية الرئيســة)حينــا ، و(الشخصــية المحورية) حينا آخر؛ إذ يقول في هذا الصدد :« تعني الكلمة في أصلها اليوناني المقاتل الأول . وليس بالضــرورة أن تكون الشخصية الرئيسة بطل العمل دائما ، ولكنها دائمة هي الشخصيةالمحورية، وقد يكون هناك (...) خصــم لهذه الشخصية».[28]

ولقد تعرض الناقد (إبراهيم فتحي) إلى مسألة اللاتعادلية بين مصطلحي (البطل) و(الشخصية الرئيسة) ؛ فدللَ على ذلك بقوله : «ومن الأخطاء الشائعة اعتبار البطل (أو البطلة) الشخصية الرئيســة فــي القصــة أو الفــيلم أو المسرحية أو الرواية دون أن يتصف بصفات البطولة ».[29]

أمَا عن الناقد (عبد الملك مرتاض) فقد ثبت عند (الشخصية المدورة) المقابلة للمفــردة الأجنبيــة (round character)، وقد سعى الناقد إلى الركون إلى قاعدة تميز بين الشخصيتين (المدوَرة / المسطحة)، انطلاقا من مبدأ (المفاجأة) الذي ابتدعه كل من (تودوروف / ديكرو) .

وعليه، فالشخصية السردية « إن فاجأتنا مقنعة إيانا فهي مدورة ، وأما إن لم تفاجئنا فهي مسطحة ».[30]

ولا نحسب أن تبني مصطلح (الشخصية المدورة) من لدن (عبد الملك مرتاض) كفيل بأن يجمع عليها أترابه؛ إذ يطلع علينا الناقد (إبراهيم فتحي) مبشرا بميلاد مصطلح مغاير له ، وهو ما تمثل عنده فــي (الشخصــية التامــة الممتلئة) الذي خلص إليه عبر ترجمته للمفردة الإنجليزية)(Round character) ؛ إذ إنَها تتصف بـــ

«عمق واضح وأبعاد مركبة وتطور مكتمل وقادرة على أن تدهش القارئ إدهاشا مقنعا مرات عدة ».[31]

ولعل مكابدتنا في التحرَي والكشف عن الميزات التي تصطبغ بها (الشخصية المدورة)عنـــد (عبـــد الملـــك مرتاض) ، قد أفضت بنا إلى أن نثبَت ذلك عبر معادلة رياضياتية- باصطلاح عبد الملـــك مرتـــاض - مؤداهـــا الآتي:

الشخصية المدورة = شخصية (مركبة + مغامرة + رجراجة + غامضة + متغيرة) وعلى الرغم من تبنـــي الناقد لمصطلح (الشخصية المدورة) الذي نقله عن الفرنسي (ميشال زيرافا) ، إلا أن الاتكاء على المرجعية العربية التراثية في تدعيم هذا الاجتباء الاصطلاحي كان واضحا في مقولته التي مؤداها : «ونميل نحن إلى مصطلح ميشال زيرافا، وهو (الشخصية المدوَرة) ، ونحن اخترنا هذه الترجمة ؛ لأننا استوحيناها من التـــراث العربـــي؛ إذ كـــان الجاحظ كتب رسالة عجيبة وصف فيها شخصية نصفها حقيقي، ونصفها الآخر خيـــالي ، وهـــي رســـالة التربيـــع والتدوير الشهيرة» .[32]

ولعلنا نجد في مصطلح (الشخصية المدوَرة) الذي تبنَاه (عبد الملك مرتاض) ليجعل منه دالا معادلا للمصطلح الأجنبي)(Round character بديلا لفظيايدنو من دال (الدائرة) التي تتميز بالانغلاق والحيز المحدود. وبذلك فإنه لا يعقل – في نظرنا – أن تكون الشخصية الدينامية – الفعَالة – منطلقة فـــي محـــيط حيـــزي يتصـــف بالضـــيق والانغلاق.

وعليه ، فإننا نعتقد أن مصطلح (الشخصية المركزية) المصطلح الأنسب والأقرب إلى المفهوم الذي يتعلـــق بهذا الضرب من الشخصية ؛ لأن (المركز) تتقاطع من خلاله مسارات المنجز السردي بشخصـــياته وأمكنتـــه – أو أحيازه باصطلاح (عبد الملك مرتاض) – وأزمنته التي تتشكل على الخارطة النصية ، ومن خلال المركز تنشـــطر سائر المكونات السردية من جهة ، لتعاود التجمع والتراص عنده من جهة أخرى .

***- الشخصية المسطحة :**

لا ضير أن تحدَد (الشخصية المسطحة) في شكلها العام باعتبارها « شخصية ذات بعد واحد ، شخصية يمكن التنبؤ بسلوكها بسهولة ، وتعد شخصية " مسزميكاوبر" في رواية تشارلز ديكنز " ديفيد كوبرفيلد " مثالا لهذا النوع من الشخصيات».[33]

وبالإضافة إلى تلك الصفات التي وضعها الناقد (جيرالد برنس) لهذا اللون من الشخصية التي تتسم بكونهـــا تحمل بعدا واحدا ، ويمكن الكشف عنها بيسر، فإن الناقد (إبراهيم فتحي) قد سعى إلى أن يثبت خصـــائص أخـــرى تتميز بها ، إذ إنها عنده « لا تتطور مكتملة، وتفقد التركيب ولا تدهش القارئ (...) ويمكن الإشارة إليها كنمط ثابت أو كاريكتار» .[34]

وانطلاقا من المقولات السابقة التي أشارت في شكلها العام إلى بعض ميزات هذا النوع من الشخصية ؛ حيث إنها (ذات البعد الواحد) ،(سهلة التنبؤ) ، (غير متطورة) ، (غير مكتملة) ، فإننا نضـــيف لهـــا بعـــض المســـمَيات الأخرى، التي ساقها الناقد العراقي (أحمد رحيم كريم الخفاجي) ؛ والذي يقول في شأنها : «ويدعو بعض نقدتنا هذه الشخصية بعدة مصطلحات مرادفة للسطحية هي (الشخصية الثابتة) أو (الســـكونية) أو (الثانويـــة) أو (ذات البعـــد الواحد) أو(الجامدة) » .[35]

أما عن المعالجة النقدية التي خصَصها لها (عبد الملك مرتاض) ، فإنها تتأتى عبر المفاهيم التي ساقها لها؛ إذ إنها عنده « تلك الشخصية البسيطة التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفهـــا وأطـــوار حياتها بعامة » .[36]

وبذلك يكون (عبد الملك مرتاض) محدَدا لهذا الضرب من الشخصية عبر ميزتي (البساطة/ اللاتغيـــر) ، ولا نحسب أن قد ضرب على وتر الجدَة والجديد في كشفه عن مفهوم هذا المصطلح، لأن الناقد يظل ناقلا أمينا –في نظرنا– لما أوضحه (فوستر) بخصوص هذه الشخصية؛ إذ إن «المسطح مـــن الشـــخوص يســـميه " فوستر" بالثابت».[37]

وعلى هذا فإن صفة (اللاتغير) التي أومأ إليها (عبد الملك مرتاض) تجد دالا يضايفها ويوازيها عند (فوستر) والمتمثل في صفة (الثبات) ، وهو الأمر ذاته عند (جيرالد برنس) الذي يراهن على فك اللبس بين نوعي الشخصية عبر النظر إلى مبدأ (التغيَر/ التبدّل)، وبذلك تكون الشخصية « دينامية حركية عندما يطرأ عليها التبدل، أو استاتيكية ساكنة عندما لا تكونقابلة للتغير».[38]

أمَا عن خاصية البساطة التي اصطبغت بـــ(الشخصية المسطحة) عند (عبد الملك مرتاض)، فإنها تحيل إلى مبدأ السهولة في القبض عليها وتحديدها؛ إذ إن «مزية الشخصية المسطحة تتمثل في قابليتها لأن تعـــرف بســـهولة ويسر».[39]

وليس بالجديد على الناقد أن يصنع المفاجأة النقدية ؛ فيضرب على أوتار المصطلح الغرائبـــي – إن صـــح التعبير – ، فبعد أن أورد مصطلح (الشخصية الثانوية) التي توازي – المسطَحة – حينا وتتضاد مـــع (الشخصـــية المركزية) – أو المدورة باصطلاح مرتاض –، والتي دل عليها قوله : « نصادف الشخصية المركزية التي تصادي الشخصية الثانوية ».[40]

فإنه نجده مبتدعا لمصطلح محدث أسماه بـــ : (الشخصية الخالية من الاعتبار)، أو كما يقابلها فـــي الرســـم الأجنبي(Personnage de comparse)، أو كما اصطلحعليها بـــ:(الشخصية العديمة الاعتبار) في سياق آخر .

وعليه، فإننا لا ننساق مع هذا الاصطلاح المحدث الذي يوازي (الشخصية الثانوية)، وذلك وفق اعتبارين :

1- إن التسمية التي وضعها (عبد الملك مرتاض) لهذا الضرب من الشخصية والموسومة بـــ (الشخصـــية العديمـــة الاعتبار) لا تكاد تجد وفاقا – في نظرنا – مع الشخصية الثانوية – أو المسطحة وغيرها – لأن حملهـــا لصـــفة العدم قد تجعلنا نقف أمام ما يشبه إقصاءها الكلي أو اللاوجودها .

2- إن الناقد لم يورد هذا المصطلح حين عنونته لضروب الشخصية ، أضف إلى ذلك أنه أومأ إليه دون البت فـــي تفاصيل حده المصطلحي أو في مدلولاته المشحونة مفهوميا .

وإن الذي يعزز مسألة عدم الاستقرار أو الثبات عند (عبد الملك مرتاض) في الإشارة إلى المصطلح الأقرب إليهـــا، هو ما دل عليه الناقد ذاته بقوله :« بيد أن الشخصيات السلبية أو المسطحة، أو الثابتة (وهذه المصطلحات الثلاثة تكاد تعني شيئا واحدا منها)».[41]

وفي ختام هذه القراءة النقدية التي حاولنا من خلالها أن نجوب رحاب المقولات التي خصَها الناقـــد (عبـــد الملـــك مرتاض) لمكوَن(الشخصية السردية) ، فإننا نصل إلى خلاصة تتأسس وفق الآتي :

- ظل المنزع البنيوي السردي المثبت بمقولات أعلامه الفرنسيين خاصة واضحا في معظم المقولات النقدية التي خصَها الناقد (عبد الملك مرتاض) لمكوَن (الشخصية السردية) ، وكان يستحسن – في نظرنا – أن يعرض مفاهيمها داخل اتجاهات السرد المختلفة ، ثم يخلص إلى قراءة نهائية بعد استنباط واستقراء المفاهيم المتعلقة بها عنده ، بعيدا عن الانغلاق داخل الدائرة البنيوية ، وذلك انطلاقا من المقولة التي مقتضاها «الضد يظهر حسنه الضد» .
- لا مشاحة أن تكون القراءة النقدية لمبحث (الشخصية) عند (عبد الملك مرتاض) متَسمة – وفق تصورنا – بشيء من السطحية ؛ لأن الناقد قد اكتفى بعرض ألوانها وأشكالها وبسط مسمياتها دون التدقيق في ظلال مصطلحاتها، وإقراره بالمفهوم الأقرب وهذا ما نجده جليا لات إقراره بأن صفات (السلبية/ المسطحة / الثابتة) تحيل إلى مفهوم واحد يقابل (الشخصية الثانوية) دون تقديم علامات التميَز بينها .

مكتبة البحث :

[1] سعيد بنكراد ، السرد الروائي وتجربة المعنى ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب ، ط1 : 2008 . ص20

[2]عبد اللطيف الطاهر زكري ، بناء المفاهيم النقدية ، (علامات) ، ج57، مج 15 ، 2005 . ص ص341 – 342

[3]صلاح صالح، سرديات الرواية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2003 . ص ص 22 – 23

[4]إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، استنبول ، تركيا، (دط) ، (دس) ، ج1 ، مادة (ش خ ص) . ص475

[5]ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 : 1997 ، مج3 ، مادة (شخص) . ص406

[6]بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، (دط) ، 1998، مادة (شخّص). ص455

[7]جويدة حماش ، بناء الشخصية في حكاية عبدو والجماجم والجبل لمصطفى فاسي ، منشورات الأوراس ، الجزائر ، (دط)،2007 . ص56

[8]المرجع نفسه . ص57

[9]حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند حسين مصطفى ، مجلس الثقافة العام، سرت، ليبيا، (دط)،2006 . ص62

[10]عائشة بنت يحي الحكمي، تعالق الرواية مع السيرة الذاتية،الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، ط1 ، 2006.ص91

[11]فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية،تر: سعيد بنكراد، دار الكلام،الرباط، المغرب،(دط)، 1990 .ص15

[12]المرجع نفسه

[*]ينظر، حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط3 ، 2000 . ص50

[13]شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1984 . ص9

[14]لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط1 ،2002 . ص35.

[15]المرجع نفسه . ص35

[16]عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع 240 ، 1998. ص13

[17]جيرالد برنس، قاموس السرديات، تر:السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ، مصر، ط1، 2003 . ص13

[18]عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردي . ص127

[19]عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص91

(20)المرجع نفسه. ص76

(21)المرجع نفسه . ص75

(22) أحمد رحيم كريم الخفاجي ، المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث ، دار صـــفاء ، عمـــان ، الأردن ، ط1، 2012 . ص379

(23)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية. ص268

(24)حميد لحمداني ، بنية النص الأدبي من منظور النقد الأدبي . ص50

(25)عبد الملك مرتاض ، تحليل الخطاب السردي .ص126

(26)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص86

(27) أحمد رحيم كريم الخفاجي ، المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث. ص397

(28)إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية . ص212

(29) المرجع نفسه. ص69

(30)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص88

(31)إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية . ص212

(32)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص ص87 – 88

(33)جيرالد برنس ، قاموس السرديات . ص70

(34)إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية . ص212

(35) أحمد رحيم كريم الخفاجي ، المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث . ص396

(36)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص89

(37)إبراهيم خليل، بنية النص الروائي . ص43

(38)جيرالد برنس، قاموس السرديات . ص30

(39)إبراهيم خليل ، بنية النص الروائي . ص43

(40)عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية . ص87

(41)المرجع نفسه. ص89